

قراءة في جهود النقاد المغاربة القدامى "أبو محمد القاسم السجلماسي" أنموذجا

Reading in the efforts of the old Moroccan critics "Abu Muhammad Al-Qasim Al-Sijlmasi" as a model

د/ محمد تنقب*

كلية الآداب والفنون - جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف - الجزائر.

البريد الإلكتروني: mohammed.tankeub@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/27 تاريخ القبول: 2021/11/20 تاريخ النشر: 2021/12/30

ملخص:

سعى النقاد المغاربة إلى الاستفادة من النقد الأدبي العربي القديم، وجاء هذا النقد المغربي كنوع من التجديد، يعتمد على عنصر التخيل والمحاكاة؛ إذ يحاولون من خلاله تجاوز النظرة التقليدية للبلاغة العربية كقضايا الصدق والكذب واللفظ والمعنى وغيرها، ومن بين الإسهامات التي طورت النقد المشرقي، إسهامات أبو محمد القاسم السجلماسي، الذي اعتمد كثيرا على آراء الفلاسفة. وتبحث هذه الورقة في جهود هذا الناقد الذي قدّم الكثير للنقد المغربي، وتقديم آرائه بطريقة مبسطة للباحثين قصد الاستفادة منها.

الكلمات المفتاحية: أبو محمد القاسم السجلماسي؛ النقد المغربي القديم؛ المغرب العربي.

Abstract:

Moroccan critics sought to benefit from the ancient Arab literary criticism, and this Moroccan criticism came as a kind of renewal, based on the element of imagination and simulation; Through it, they try to transcend the traditional view of Arabic rhetoric, such as issues of truth, lies, pronunciation, meaning, and others. Among the contributions that developed oriental criticism are those of Abu Muhammad al-Qasim al-Sijlmasi, who relied a lot on the views of philosophers.

This paper examines the efforts of this critic, who presented a lot to Moroccan criticism, and presents his views in a simplified manner to researchers in order to benefit from them.

Keywords: Abu Muhammad al-Qasim al-Sijlmasi; ancient Moroccan currency; Arab Maghreb.

1. مقدمة:

إنّ الدارس للنقد المغربيّ يرى أنّ له علاقة وطيدة بنظيره في المشرق العربيّ، وذلك لعدة أسباب منها : اللغة العربية والدين الإسلامي الواحد والثقافات المتقاربة جداً، كل هذا جعل الإنتاج الأدبي والنقدي يتشابه، بسبب ما يطبع البيئة والعقلية والحضارة العربية التي تستمدّ ضيائها من هموم مشتركة، ومن عادات وتقاليده تكاد تتماثل ما بين المشرق العربي والمغرب العربي.

وعند مقارنة الحركة النقدية في المغرب العربيّ بنظيرتها في الأندلس لا نكاد نجد فرقاً كبيراً بينهما، إلا فارقاً زمنياً نسبياً، فالنقد الأندلسي يزيد امتداده عن أربعة قرون، "وعرف تطوراً وخصوصية بل اتضحت المناهج في هذا الإقليم الشاسع من غرب إفريقيا والعالم العربيّ، أضف إلى ذلك أنّ الإشكال ليس وارداً فيما يتعلّق بالأندلس، فالخزائن ملأى بالمولّفات عنها، ولكن الصعوبة قائمة، والحقول مشوّكة بالقتاد فيما يرجع إلى النقد المغربيّ القديم. وللحق أعترف أنّ الإقبال على البحث في هذا الإقليم يعدّ مغامرة؛ لأنّ من ينيط بنفسه الخوض فيه يكون مضطراً إلى التنقيب والتّحصيل والموازنة والغريلة، وقد تسعفه المظانّ فلا يصطفي منها؛ بل هو مضطّر إلى الأخذ عن المصنّفات المختلفة من تاريخية وفقهية وأدبيّة وسياسية وغيرها على اعتبار أنّ القدامى كانوا يحملون مختلف العلوم والموضوعات ضمن قرطاس واحد"¹ (عبد السلام شقور، 1984م، ص26).

من خلال هذا الكلام جاءت هذه الورقة لتسلط الضوء على رمز من رموز النقد المغربيّ ألا وهو (أبو محمد القاسم السجلماسي) والاطلاع على جهوده القيم في مجال النقد، والإضافات التي تميز بها.

2. تجليات النقد المغربي:

لقد ساهمت عديد العوامل في تبلور النقد المغربي، ومن أهمها التحرر النفسي والفكري لدى النقاد المغاربة من قيود التعيد التقليدية التي كانت مفروضة عليهم، والتي كانت تسبب نوعا من الكبت والاستبعاد، وعملية الإبداع لا تتأتى إلا في وسط يرفض وضع القواعد والحواجز أمام تطلعات الناقد، لأنّ " الإبداع الحقيقي ليس في ابتكار الصور كيفما اتفق ولكن في التي تتوافق مع الموقف، وتتلاءم مع المقام"² (محمد مرتاض، 2000م، ص151)، نفهم من خلال هذا الكلام أن الأبداع الحقيقيلا يخضع لأي قيد من القيود.

إن هذا التحرر الذي يدعو إليه النقد المغاربة، ليس وليد الساعة بل ترجع جذوره إلى عصر أفلاطون وأرسطو، فلقد " لاقى هذا الفهم والتطوير الأرسطي للوظيفة الأدبية الفنية رواجاً ذريعاً على مساحة زمن العصور الوسطى وبخاصة عند المسلمين كما هو ظاهر عند ابن حزم وابن قتيبة، وبلغ ذلك ذروته في النطاق الغربي حين ظهر هيپوليت تين (Taine Hippolyte) (1828م-1893م) بنظرية (البيئة والجنس والعصر)، ومن بعده سانت بييف (Sainte Beuve) (1804م-1869م) الذي شارك سابقه، حين حدد أثر الاتجاهات على الأدب الفرنسي في عصره، وإقراره الضرورة الوظيفية الاجتماعية للأدب، وإرساخ الاعتقاد بكونه نتاجاً اجتماعياً، وهذا ما قرره ونادى به كل من جورج لوكاتش (George Lucas) (1885م-1971م) ولوسيان غولمان (Goldman-Lucien) (1913م-1970م) في مجال حرية الإبداع، حين ربط الأول العمل الأدبي بالعوامل الاجتماعية الاسياسية، في حين حاول الثاني إقامة توازن بين الذاتي والموضوعي في النظر إلى الواقعية الأدبية"³ (محمد شرفي، 2012م-2013م، ص227).

3. توجهات النقد المغربي:

نظرا للعوامل الثقافية والدينية المحيطة بالمغرب العربي والتي أثرت على الأدب العربي، عرف

النقد اتجاهات مختلفة حصرها الدكتور عبد السلام شقور في ثلاثة هي:

"1- اتجاه ديني صرف: وهو ينطلق من نصوص دينية لغايات تشريعية أو غير تشريعية؛ ومنه الأبحاث التي تناولت قضية الإعجاز والبلاغة النبوية.

2- اتجاه أدبي: ويتمثل في الشروح الأدبية.

3- اتجاه تأسيسي: ويهتم بالتقعيد في المقام الأول؛ ويمثله: ابن البناء المراكشي بكتابه (الروض المربع) والسجلماسي بكتابه (البديع) وابن رشيد السبتي بكتابه (أحكام التأسيس في إحكام التحنيس)⁴. ونحن من خلال هذا البحث نريد تسليط الضوء على أعمال الناقد أبو محمد القاسم السجلماسي.

4. التجديد النقدي عند السجلماسي:

السجلماسي هو أبو محمد القاسم بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري. ولد ونشأ بسجلماسة، ورحل إلى فاس لطلب العلم ودرس في القرويين ثم بمراكش، صنف كتاب «المنزع البديع في تحنيس أساليب البديع»، أنجزه سنة 704 هـ، وقد طبع الكتاب بتحقيق من علال الغازي بالرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1980م. الذي أراد من خلاله بيان إعجاز القرآن الكريم، وذلك بإعادة تقسيم البلاغة العربية وإيجاد قوانين تقي من الوقوع في تأويل كلام الله بغير علم، وقد عبر عن ذلك في كتابه بقوله: "وبعد، فقصدنا في هذا الكتاب... إحصاء قوانين أساليب النظم التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعية لعلم البيان وأساليب البديع، وحنيسها في التصنيف... وتحرير تلك القوانين الكلية، وتجريدها من المواد الجزئية بقدر الطاقة، وجهد الاستطاعة"⁵ (أبو محمد القاسم السجلماسي، 1980م، ص180).

ونجد أن السجلماسي قد اتبع منهج أرسطو والفراي وابن سينا في أنّ " الجنس العالي لا يترتب تحت شيء ولا يحمل على جنس آخر عال أصلاً"⁶ (أبو محمد القاسم السجلماسي، 1980م، ص290). وقد قسم هذه الأجناس العالية إلى عشرة أنواع بقوله: "إنّ هذه الصناعة الملقبة بعلم البيان وصناعة البلاغة والبديع، مشتملة على عشرة أجناس (عالية) وهي: الإيجاز، والتخييل، والإشارة، والمبالغة، والرصف، والمظاهرة، والتوضيح، والاتساع، والانتشاء، والتكرار"⁷ (أبو محمد القاسم السجلماسي، 1980م، ص180). عندما ندقق في هذا الكلام يتجلى لنا أنّ كتاب السجلماسي (المنزع البديع) قد احتوى على آراء نجدها في الدراسات اللغوية الحديثة مثل الإعلاميات واللسانيات وتحليل الخطاب ولسانيات النص وغيرها.

5. المصطلحات السجلماسية في النقد المغربي الجديد:

1-5) مصطلح التخييل:

لقد أفاد السجلماسي كثيرا من كتب الفلسفة اليونانية، ولعلّ أظهر كتاب كان النواة الأولى في تبلور فكره النقدي هو كتاب (الشفاء) لابن سينا، حيث "يستعين على تزكية رأيه ب (خطابة) أرسطو و(شفاء) ابن سينا"⁸ (أبو محمد القاسم السجلماسي، 1980م، ص143)، وقد أفرد بابا في كتابه لمصطلح التخييل وجعله تحت عنوان (الجنس الثاني: التخييل)، وهو عنده التشبيه والاستعارة والمماثلة أو التمثيل والجاز، وعرف القول المخيّل كما عرفه ابن سينا بقوله: "إن الشعر هو كلام مخيل، مؤلف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاه"⁹ (أرسطو، 1982م، ص161)، أي أنّ الشعر ينبني على التخييل.

2-5) مصطلح المحاكاة:

لقد جعل السجلماسي المحاكاة هي التخيل، وأحيانا كان يطلق عليها كذلك مصطلح المماثلة أو التمثيل، إذ يقول في كتابه: "والمماثلة هي النوع الثالث من جنس التخيل، وحقيقتها التخيل والتمثيل للشيء بالشيء له إليه نسبة وفيه منه إشارة وشبهة، والعبارة عنه به، وذلك أن يقصد الدلالة على معنى فيضع ألفاظا تدل على معنى آخر، ذلك المعنى بألفاظه مثالا للمعنى الذي قصد الدلالة عليه، فمن قبل ذلك كان له في النفس حلاوة ومزيد إلذاذ، لأنه داخل بوجه ما في نوع الكناية من جنس الإشارة، والكناية أحلى موقعاً من التصريح"¹⁰ (أبو محمد القاسم السجلماسي، 1980م، ص244)، على هذا الأساس تعد المحاكاة جنسا من أجناس نظرية علم أساليب البلاغة العشرة التي وضعها السجلماسي.

5-3) مصطلح البديع:

عند النظر لواجهة الكتاب أول ما نلمحه هو مصطلح البديع، الذي بنى عليه المؤلف كتابه رابطا إياه بالأساليب، وهي بمثابة القوانين التي تبنى عليها البلاغة العربية، حيث يذكرها في كتابه قائلا: "وبعد، فقصدنا في هذا الكتاب الملقب بكتاب (المنزع البديع) إحصاء قوانين أساليب النظم التي تشمل عليها الصناعة الموضوعية لعلم البيان وأساليب البديع، وتجنيسها في التصنيف، وترتيب أجزاء الصناعة في التأليف"¹¹ (أبو محمد القاسم السجلماسي، 1980م، ص180)، نفهم من خلال هذا الكلام أن السجلماسي قد ربط بين البديع وعلم البيان وجعلهم في محور واحد، وإذا فتشنا في كتابه نجد أنه قد استعمل هذا المصطلح بمعنى خاص يدخل في إطار التصنيف البلاغي عند المتأخرين.

6. العلاقة بين المتلقي والنص الأدبي عند السجلماسي:

يعطي السجلماسي أهمية كبيرة للمتلقي في إثراء النصوص الأدبية، فهو عنده مشارك في العملية الإبداعية، إذ عند قراءته للنصوص يقوم ببذل جهد فكري في دراسة دلالاتها وإيجازاتها، محاولاً في ذلك الرقي بها من مجرد نصوص جافة إلى واقع معاش، ومن هنا تقوى العلاقة بين المتلقي والصاحب النص، ونجد السجلماسي يقول في ذلك: "ولا خفاء بارتباط الانفعال هنا والارتياح بما يفرغ السمع ويفجأ البديهة فقط دون ما عداه، والانفعال التخيلي بالجملة هو غير فكري، فكيف يعود الأمر غير الفكري فكراً، وينقلب الأمر البديهي اختيارياً؟"¹² (أبو محمد القاسم السجلماسي، 1980م، ص500)، والأمر هنا يعود إلى سعي الإنسان لإظهار مدى امتلاكه الحياة، فهو يعبر عن هذه القيمة بواسطة أساليب التعبير بالشكل أو ما يشير إليه المضمون، لإيصاله إلى الآخر، إنما للخروج من ذاتيته الفردية الخاصة إلى ذاتية توحى له بالاشتراك مع الآخرين، لكن هذا الأمر إذا لم يكن منطلقاً للفعل الإبداعي الباعث على التجاوز أو المؤسس لما هو جديد فسيقع في أسر التقليد، لأن العمل الفني أو الأدبي وسيلة لنقل الانفعال كما هو الحال في العلوم التطبيقية التي هي وسيلة لنقل المفاهيم، فينبغي التمييز في المنحى الانفعالي بين: الانفال الذي يعبر عنه العمل الأدبي والانفعال الذي ينقله، وفي هذا تمييز بين الطبع الفني الجمالي والصنعة التقنية اللافتة للنظر، أو بين الوظيفة الجمالية الممتعة والدلالة الوضعية المباشرة¹³ (رحمن غركان، 2004م، ص47)، إذا فالمتلقي له أهمية بالغة لا يمكن إنكارها في النقد الجديد، المكانة التي لم يتلقاها عند النقد القدامى، جعلت منه في هذا العصر محورا أساسا في العملية الإبداعية .

7. خاتمة:

بعد هذه الجولة التي قمنا بها لإبراز جهود واحد من أهم النقاد المغاربة، خلص البحث إلى النتائج

التالية:

- الأفكار والآراء النقدية التي توصل إليها أبو محمد القاسم السجلماسي هي حصيلة بحث وتنقيب في الآراء التي كانت قبله، فأيد بعضها ورفض الآخر.

- اعتماد الذوق والحس الجمالي في نقد النصوص الإبداعية.

- الفهم الدقيق لماهية الشعر على أنه إحساس وخيال ينقل تجرب الشاعر إلى المتلقي فيجعله يعيشها، وهذا بالإضافة إلى الفهم القديم للشعر (كلام موزون ومقفى)، وبذلك تكون نظرتة للشعر نظرة متكاملة.

- أقرّ السجلماسي بأهمية اللفظ والمعنى في العملية الإبداعية، لأنّ كل منهما له دوره في إيصال الدلالة المرادة للمتلقي.

- جعل للشعر لغة خاصة تميزه عن بقية الأجناس الأدبية الأخرى، لما يحمله من انفعالات ومشاعر.

- استخدام مصطلحات تؤسس عليها العملية الإبداعية كالتمثيل والبديع والمحاكاة ...

- الاهتمام بقضية الوضوح والغموض التي تكتنف جوانب من الشعر والتي بدورها تساهم في بلورة لغة القصيد الشعرية.

ولا تزال الكثير من الآراء الفكرية التي جاء بها السجلماسي تساهم في نمو النقد المغاربي والارتقاء به إلى درجة العالمية.

8. الهوامش:

- ¹ عبد السلام شقور، (12-13-14 أبريل 1984م)، أولويات النقد المغربي، ندوة حول جوانب من الأدب في المغرب الأقصى، جامعة محمد الأول، وجدة، ص26.
- ² محمد مرتاض، 2000م، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي (المقدمة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سوريا، ص151.
- ³ محمد شرقي، (2012م-2013م)، الشعر بين الانفعال التخيلي والفكر في التنظير البلاغي المغاربي القديم، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، ص227.
- ⁴ عبد السلام شقور، أولويات النقد المغربي، ص30.
- ⁵ أبو محمد القاسم السجلماسي، 1980م، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، ط1، مكتبة المعارف الرباط، المغرب، ص180.
- ⁶ نفسه، ص290.
- ⁷ نفسه، ص180.
- ⁸ نفسه، ص143.
- ⁹ أرسطو، 1982م، فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ص161.
- ¹⁰ أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص244.
- ¹¹ نفسه، ص180.
- ¹² نفسه، ص500.
- ¹³ ينظر: رحمن غركان، 2004م، مقومات عمود الشعر الأسلوبية في النظرية والتطبيق، اتحاد كتاب العرب، دمشق، ص47.

9. قائمة المراجع:

- 1- أبو محمد القاسم السجلماسي، 1980م، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، ط1، مكتبة المعارف الرباط، المغرب.
- 2- أرسطو، 1982م، فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر.
- 3- رحمن غركان، 2004م، مقومات عمود الشعر الأسلوبية في النظرية والتطبيق، اتحاد كتاب العرب، دمشق.

- 4- محمد شرفي، (2012م-2013م)، الشعر بين الانفعال التخيلي والفكر في التنظير البلاغي المغاربي القديم، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران.
- 5- محمد مرتاض، 2000م، النقد الأدبي القاسم في المغرب العربي (المقدمة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سوريا.
- 6- عبد السلام شقور، (12-13-14 أبريل 1984م)، أولويات النقد المغربي، ندوة حول جوانب من الأدب في المغرب الأقصى، جامعة محمد الأول، وجدة.